جواب رسالة حزينة (١)

للاستاذ مصطفى كامل

أترى فى الناس أحداً ينفر من انسان كان مريضاً بداء خبيث ثم برئ منه ؟ وإن نفراً يقره الناس على هذا الخوف السخيف أم يستحقونه ؟ ثم ما الفرق بين المرض الجسمانى وبين السقطة الخلقية وكلاهما مرض قد يبرأ منه المريض ؟

ثم ما ذنبه ؟ أيمكن أن انساناً يطلب المرض بمحض اختياره أم ترى أن المريض ضحية بائسة لا تتمنى على الله شيئاً فى الدنيا إلا البرء منه ؟ ولو أن إنساناً ترك لماه وهواه لما طلب إلا أن يكون صحيح الجسم سليم النفس

ثم ما فضل السليم على المريض أو الذكى على الغبى ؟ وما فضل الكريم على اللئيم ؟

هل يمكن أن يكون أحد من الناس من عمل نفسه . أم هو من عمل الأسلاف والبيئة والأجواء والتعليم والثروة وظروف الحياة ؟ أليس الفرد نتاج ملايين من العوامل المتفاعلة التى تكونا وتجعلنا فى الصورة التى نحن عليها ؟

أترى أحداً استطاع أن يكون ملكا ولم يرض ، أو نبيا ولم يفعل ؟ أو ثريا ولم يقبل ؟ فوالله لو أن أمور الدنيا فى مكنة الناس لكانوا ملائكة جميعاً

طبعت على ما فىّ ، غير مخير
هواى ، ولو خُيرت كنت المهذبا

كلما عرضت لى فى أمور الحياة مثل حال هذه الفتاة ، خطرت ببالى جملة رائعة ما أزال أذكرها ، لبول بورجيه ، فى كتابه « التلميذ » قال : « أيمكن أن نحترم لاعب الروليت الذى يلعب عشر مرات متوالية على الأحمر أو الأسود . ألا إنما الفضيلة والرذيلة هما الأحمر والأسود : والفتاة الشريفة ، واللاعب المحظوظ سواء فى المواهب » .

ألا إنما الفاضل من الناس فاضل بسبب الظروف التى عصمته ، والمجرم من الناس مجرم بسبب الظروف التى أضعفته .

ولو أن المجرم وضع مكان العالم الورع الشريف وله نفس العوامل فى الماضى ، ونفس الحوادث فى البيئة وأوضاع الحياة ، لما كان إلا الرجل الفاضل الورع الشريف . ولو أن امرأة شريفة عرضت لها نفس عوامل المرأة التى سقطت لما ظلت امرأة شريفة ، وإذن فما فضل إنسان على انسان ؟ ألا أننا كلنا من عمل ما لا نملك فى نفوسنا مما قد يرجع الى ما قبل وجودنا

لقد كنت فى إحدى القهوات مرة . فلمحت مربيا معروفا حالس الناس وأحنى يده مسحية فى جيبه ، وهو مع ذلك رجل كان يجب أن يكون له من تربيته حصانة فلا يتدنى . ومن ثروته حائل فلا يسفل ، ولو لم يكن من ظروف هذا الرجل ما يحميه من الاسفاف لما كان إلا من صرعى القانون .

وإذن فما ذنب مريض قد مرض رغم أنفه ، ثم بعد ذلك قد برئ ، ومع ذلك فما معنى أن يجعل الماضى جزءا من الحاضر ، وان يجعل من لوثة هذا الماضى رجسا للحاضر ودنسا للمستقبل ؛

لقد مات هذا الماضى ولم تعد له من علامات الحياة وأسبابه الا ذكريات من عمل الرءوس وخيالات النفوس

ليمض هذا الصديق فى حبه ، فليس فى الدنيا كافة ما يعدل القلب المفعم بالحب بهجة ولذة وسعادة ، وليمض قلبه بهذا الحب قبل أن تسكن نأمته ، وليملأ بيته وعشه الجميل قبل ان يوحش قبره ، ولينعم حياته بالامل والحب والجمال قبل أن تجف الحياة ؟

(١) انظر العدد الثالث والعشرين ص ١١

قلم خضير

بريشة ذهب عيار ١٤
مضمون ٣ سنوات
تستعمله الحكومات الشرقية
مكتبة ومطبعة خضير بشارع عبد العزيز بمصر